وهن الانقياد

٢٩/ ٤/ ١٤٣٧هـ

السـيرُ إلى الله تعالى طريقُه طويلةٌ لاحِبَـة[١] ولكونها تُقطع بالقلوب لا بالأقدام فقد تكاثرت كلمات الأئمـة الأعلام في بيان المحفزات التي تُعين على سـلوك هذا الطريق والانتظام فيه، والتحذير من العقبات التي تعترض سالكَه، أو توْهِن سيرَه فيه.

ولئن كان التسـليمُ المطلَق لأوامر الشريعة، وتعظيمُ أمر الله ورسوله ونهيِهما من أوّلِ هذه المحفزات والدعائـم؛ فإن هذا أيضًا محفوف بما قد يشـوّش عليه، ويكدّره، ومِن أجمل العبارات التي استوقفتني في التعبير عن هذه المشوّشـات قول أبي إسماعيل الهروي رَحِمَهُ ٱللَّهُ صاحب (المنازل) -في سـياق حديثه عن تعظيم الأمرِ والنهيِ-: «هو ألا يُعَارَضَا بترخّصٍ جافٍّ، ولا يُعرَّضا لتشديدٍ غالٍ، ولا يُحْمَلا على علةٍ توهنُ الانقيادَ»[٢].

ولا أخفيك -أخي القـارئ- أنني بقيتُ فترةً طويلـةً أتأمل كلمتَه الأخـيرةَ: «ولا يُحْمَلا على علـةٍ توهنُ الانقيادَ»! وطفقـتُ أتأمل فيها، وفي آثارهـا، ومرّت أمام ناظريَّ قصةٌ طويلـةٌ كَلَّ فيها عزمُ الانقياد عند

(١) النهاية في غريب الحديث والأثر (٤/ ٢٣٥): «اللاحِب: الطَّرِيقُ الْوَاسِعُ الْمنْقادُ الَّذِي لاَ يَنْقَطِع».
(٢) مدارج السالكين (٢/ ٤٦٤).

أشـــخاص، ولاحتْ في أقوالٍ ومواقفَ مختلفة في الغابرين والمعاصرين؛ كشـــف لي عن سرّ ذلك الوهنِ تعليقٌ متينٌ لابـــن القيّم على هذه الجملة المحكمة من كلام أبي إسماعيل حيث يقول:

«وقولـه: ولا يحمـلا عـلى علـة توهـن الانقيـاد»، يريـد: ألا يُتأول في الأمـر والنهـي علـة تعـود عليهـما بالإبطـال، كـما تـأول بعضُهـم تحريمَ الخمـر بأنـه معلَّـل بإيقـاع العـداوة والبغضـاء، والتعرض للفسـاد؛ فإذا أُمِـن مـن هـذا المحـذور منـه جـاز شربـه...، **وقـد بلـغَ هـذا بأقـوامٍ إلى الانسـلاخ مـن الديـن جملةً!**

ومن العلل التي توهن الانقياد: أن يعلّل الحكم بعلة ضعيفة، لم تكن هي الباعثة عليه في نفس الأمر، فيضعف انقياد العبدِ إذا قام عنده أن هذه هي علة الحكم؛ ولهذا كانت طريقة القوم -يعني السلف الصالح- عدم التعرض لعلل التكاليف خشيةَ هذا المحذور.

وأيضًا، فإنه إذا لم يمتثل الأمرَ حتى تظهر له علّتُه؛ لم يكن منقادًا للأمر! وأقل درجاتـــه: أن يضعف انقياده له...، وكل هذا من ترك تعظيم الأمر والنهي، وقد دخل من هذا الفساد على كثيرٍ من الطوائف ما لا يعلمه إلا الله، فما يَدري ما أوهنت العللُ الفاسدةُ من الانقياد إلا الله! فكم عطّلت لله من أمر! وأباحت من نهي! وحرّمت من مباح! وهي التي اتفقت كلمةُ السلف على ذمّها[1].

وحاصل كلامه رَحِمَهُ ٱللَّهُ يوضّح أن الوهن في الانقياد لأمر الله ورسوله يعتري السائرَ إذا وقع في أمور، منها: أن يتأول في الأمر والنهي علّة تعود

(١) مدارج السالكين (٢/ ٤٦٧) وقد اختصرت كلامه لضيق المقام، وإلا فهو جدير بالمراجعة.

عليهـــا بالإبطال، وأن يعلّل الحكم بعلة ضعيفة، لم تكن هي الباعثة عليه في نفس الأمر، أو أنه لا يمتثل الأمرَ حتى تظهر له العلة، ثم لخّص نتيجة هذه المحاذير بأن مآلها في كثير من الأحيان إلى الانسلاخ من الدين! ولهذا كان كثيرٌ من الســلف يتحاشــى تكلّف علل التشريع؛ خشيةَ القول على الله بغير علم، وحذرًا من برودة القلب تجاه الأمر والنهي إذا وافق العلل الضعيفة التي ارتضاها ذلك الشخص.

إن المتأمل في الساحةِ العلميةِ والفكريةِ ليجد ما حكاه ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ رأيَ العين؛ إذْ برز أقوامٌ تعاملوا في بدايات بحثهم مع النصوص وعللِها بتأويلات باردة، وتكلّفات ظنيّة لا يُقصَدُ منها تلمّسُ مراد الله ورسوله، فأوصلهم ذلك النظر -المشــوب بالهوى- إلى أحــد أمرين: إما تأولًا في ترك الامتثــال، أو تركه بالكلية؛ فوهنَ انقيادُهــم، وضعفتْ عزائمهم، ومنهم من نكص على عقبيه -نعوذ بالله من الحور بعد الكور-.

وهل وقعت البدعُ، وسُــلخت النصوصُ من بهــاء الاتباع، وجلالةِ التسليمِ إلا بمثل هذه التأويلات؟!

ولله درّ الشــاطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ حين قال: «فالمبتدعُ من هذه الأمة إنما ضلَّ في أدلتها حيــث أخَذَها مأخذ الهوى والشــهوة، لا مأخذ الانقياد تحت أحكام الله، **وهذا هو الفرق بين المبتــدع وغيره؛ لأن المبتدع جعل الهوى أوّل مطالبــه، وأخذ الأدلة بالتَّبَع...، بخلاف غــير المبتدع فإنه إنما جعل الهداية إلى الحق أول مطالبه، وأخّر هواه -إن كان- فجعله بالتبع**»[1].

(١) الاعتصام (١/ ٢٣٤).

إن هـذا المقام -أعني مقام التسليم- لا تصلح معه التأويلاتُ الباردة، ولا التعليلات التي تُوهن الانقياد، وتُضعف عزم المبادرة، بل لا يصلح معها إلا قلوبٌ قويةُ العزم في تلقّي الأمر والنهي، وتقول بلسان يغترف من القلب ما قاله ذلك الصحابي الجليل -وهو يتلقى نهي النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ عن شيء محبوب له-: «**نهانا رسولُ الله** صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ **عن أمرٍ كان لنا نافعًا، وطواعيةُ الله ورسوله أنفع لنا**»[1].

وتتأكد الوصيةُ بهذا الأمر في عصرٍ انفتح الناسُ فيه على مقالاتٍ وكتبِ أقوامٍ لا خَلاق لهم، ولم يشـّموا رائحةَ الانقياد والتسليم، بل نصبوا عقولهم حاكمةً على نصوص الشريعة، فعطّلوا النقلَ بالعقل! فليت شعري بأي عقلٍ من عقولهم نَزِن النقل؟! وماذا نصنع لو اختلفت عقولهم؟

لقد تأكد لكل مُطالعٍ لأخبار السابقين واللاحقين؛ أن الوصول إلى مقبرة الانسلاخ من الشريعة يبدأ من (وهن الانقياد) المشوب بالهوى، والسعيدُ من وُعِظ بغيره.

(١) رواه مسلم (رقم١٥٤٨).